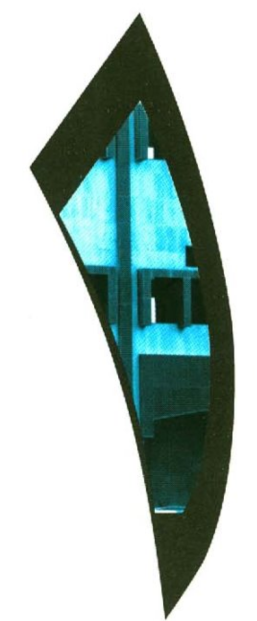
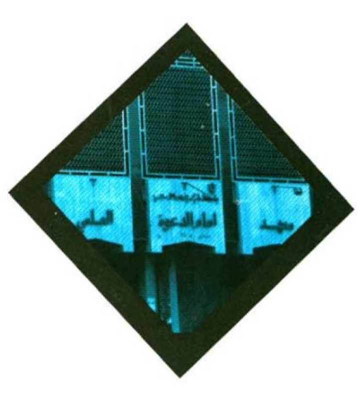
سنوات معلما





د. محمد الدويش



مؤسسة دار
رسالة البيان
للنشر و التوزيع
٠١٤٥٤٦٨٦٨



عشر سنوات مُعلِّمًا

د. محمد الدويش

ح محمد بن عبدالله الدويش، ١٤٣٠هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الدويش، محمد بن عبدالله
عشر سنوات معلماً/ محمد بن عبدالله الدويش -الرياض
١٤٣٠هـ
١١٤ص، ٢١سم
ردمك: ٥-٢٠١٩-٠٠-٦٠٣-٩٧٨
١-التعليم-السعودية ٢-التدريس ٣-الدويش، محمد بن عبدالله
(أ) العنوان
ديوي ٣٧٠،٩٥٣١ ٩٩٤/ ١٤٣٠هـ
رقم الإيداع ٩٩٤/ ١٤٣٠
ردمك: ٥-٢٠١٩-٠٠-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الثالثة

مدخل



الحمد لله الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة، والصلاة والسلام على مَن بعثه الله معلِّمًا ميسِّرًا، وعلى آله وصحبه أعلام الهدى ومصابيح الدجى، وبعد:

كثيرةٌ وعديدةٌ هي المحطات التي نمر بها في حياتنا، فنحن في نموّ وتطوّر: نموّ في السن وفي الخبرة والعلم والتجربة، يصحبه تغيّر متسارع في واقعنا، وفي الحياة من حولنا.

تُعلّمنا الحياة دروسًا عدة، وتنقلنا من تجربة لأخرى، فنعيد ونقدم ونؤخر، ونراجع رُؤانا ومواقفنا.

ومهما طال العمر وتنوعت المحطات وتعددت التجارب، تبقى لكل مرحلة طبيعتها الخاصة، ومذاقها المختلف.

عشت معلّمًا عشر سنوات، كان لها مذاق خاص، وتجربة خاصة،

ومهما تقدم بي العمر وتنوعت التجارب سيبقى هذا العقد الذي قضيته معلمًا محفورًا في الذاكرة يستعصي على النسيان.

بدأتْ بهذه السنوات مرحلةٌ مهمة من عمري وحياتي: مرحلة تمثّل بداية الاستقرار وظيفيًّا واجتماعيًّا وأُسَريًّا، وهدأ فيها كثيرٌ من عنفوان الشباب، مرحلة بدأتُ فيها العطاء، ورأيت فيها من ينصت لحديثي ويسمع، ويسأل ويناقش، مرحلة تحوي تجارب ثرية: تجارب من النجاح، وتجارب من الإخفاق، مواقف طريفة، ومواقف محرجة.

بعد أن تجاوزت تلك المرحلة، واتجهت للحديث والكتابة في قضايا التربية شعرت أني بحاجة لأن أعود إلى الوراء للتجربة العملية؛ لأنظر إليها بلغة المختص، أعود فأكتشف منها المزيد، أعود لأقرأ مواقفها ومشاهدها بلغة أخرى، فبعض ما كنت مندفعًا له لم أعد أحمل تجاهه ذاك القدر من الاندفاع، وبعض ما كنت أرفضه ولا أقبل فيه النقاش أصبح قابلاً للتفكير والمراجعة.

فدوّنت هذه السطور تحكي جزءًا مما بقي في ذهني من تلك التجربة .

إنها ليست رواية أو سيرة ذاتية؛ فلست من أهل هذا الفن، وليس القارئ مَعْنِيًّا بتفاصيل سيرتي وأخباري.

لكنها مواقف عايشتها ووعيتها، وهي في نظري ذات دلالة، قد تفيد المعلم والمعلمة، مواقف جادة ومواقف طريفة، مواقف نجاح ومواقف إخفاق، لا يجمع بينها سوى أنها تحكي تجربة عايشتها.

سعيت فيها للحديث الصريح، وتقويم النفس والتجارب،

وإعادة النظر في كثير من المواقف والرؤى؛ فالتجارب العملية والواقعية أكثر عُرضةً للنقد والتقويم والمراجعات من الأفكار النظرية.

والتقويم والمراجعة لا يعني القطيعة مع الماضي، ولا يعني البراءة من كل شيء، بل هو يزيد بعض قناعاتنا رسوخًا، ويعدِّل ويطوِّر أخرى، ويكشف لنا خطأ غيرها.

وما أُدوّنه هنا ليس حقائق علمية، ولا نتائج قطعية، بل لا يعدو أن يكون رأيًا شخصيًّا وتجربة فردية، وأحسب أني لو امتد بي العمر عقد آخر، وأعدت قراءة ما كتبته لحذفت وأضفت، ولأعدت قراءة التجربة بنظرة ورؤية أخرى؛ ففرق بين الحقائق والمبادئ الراسخة بطبيعتها، وبين التعامل مع الواقع العملي المتغير وتطبيقات الحقائق على الواقع، أو ما يسميه علماء أصول الفقه «تحقيق المناط».

وإيماني بنضج القارئ ووعيه، وأنه سيُقوِّم ما يقرأ، ولن يقف موقفًا أحاديًّا يدور بين القبول والرفض، هذا الإيمان قادني للجرأة في الحديث عن آراءٍ ربما تحتاج مزيدًا من النقاش والحوار.

وحين فرغت من مسودة هذا العمل دفعته إلى عدد ممن تشرفت بتدريسهم وعاشوا معي جزءاً من التجربة فأفدوني كثيراً بملحوظاتهم، واستدراكاتهم، فلهم مني جزيل الشكر ووافر الامتنان.

وأخص منهم -دون بخس لحق غيرهم-:

- الدكتور: يوسف العليوي.

- الدكتور: أحمد الصقيه.

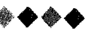
كما استفدت من مقترحات وإضافات زميلي في التدريس في المعهد وصديقي الأستاذ صالح المجلي.

كما لا أنسى أن أشكر كل من أسهم في إخراج هذه الورقات بهذه الحلَّة وأخص بالذكر الأستاذ محمد الحسن والأستاذ هارون الرشيد .. الذي قام بتصميم هذا الكتاب.

د.محمد بن عبدالله الدويش

الرياض ١/ ٢/ ١٤٣٠هـ

dweesh@dweesh.com



رسالة المعلم

سنوات معلما

د. محمد الدو



كنت أرى -كغيري من المعلمين الشباب في سني آنذاك- أن الدور الدعوي للمعلم هو من أهم أدواره، إن لم يكن أهمها، بل إن هذه الرؤية هي التي جعلت التعليم خياري الأول، رغم أنه أُتيح لي وقتها أكثر من خيار.

هذا الاختزال للمهمة الدعوية للمعلم كان يترك آثاره حول أمور عدة، منها:

- محتوى الخطاب الدعوي الذي كان يدور حول التوبة وما يقود إليها، وقصص التائبين، وشحذ الهمم نحو ذلك.

- النشاطات الدعوية التي تُمارَس من قِبَل المعلم؛ حيث تركزت في الوعظ والمحاضرة وتوزيع المواد الدعوية المؤثرة.

- تهميش الإنجاز الدعوي واختزاله في الصورة المباشرة والتغيرات التي يمكن رؤيتها وقياسها.

- النظرة للآخرين من طلاب ومعلمين وإداريين على أساس هذه الرؤية.

- تهميش الأدوار الأخرى للمعلم، واعتبار المنهج الدراسي والموقف التعليمي أحد العوائق التي يفكر المعلم في الاحتيال عليها؛ ليوفر لنفسه الوقت الكافي لأداء المهمة الدعوية.

وربما كنت أسعد حظًّا من غيري باعتباري أتولى تدريس العلوم الشرعية، وهي تتيح محتوًى يمكن توظيفه دعويًّا.

لكنّ غيري من المعلمين من أصحاب التخصصات الأخرى كانوا دومًا يتساءلون: كيف يمكن أن نوظف المنهج دعويًّا، وأحيانًا كيف نحتال على المنهج لنوفر وقتًا لأنفسنا نؤدي فيه الدور الدعوي؟

زارني -بعد أن انتقلت من مهنة التعليم- نخبةٌ من المعلمين بصحبة أحد طلابي -الذي أصبح معلمًا- وسألني معلم الرياضيات الوحيد بينهم: حتى أوفر الوقت للتوجيه الدعوي هل أترك أجزاء غير مهمة من المنهج؟ أم أختصر الوقت المخصص لشرح بعض موضوعات المقرر غير الضرورية؟

قلت له: إن دورك الأهم أن تُعلِّم الطلاب مقرر الرياضيات بطريقة صحيحة، ومعيار نجاحك يقاس بمدى تحصيل طلابك، فالعلم المادي والتقني أحد ركائز نهضة الأمة، والضعف فيه من أهم ما تعانيه أمتنا اليوم.

كانت التوجيهات التي تَرِد لمعلمي التخصصات الأخرى تدور في هذا الإطار، فمعلم اللغة العربية عليه أن يوظف الأمثلة التي ترد في المقرر، ومعلم الإنشاء عليه أن يوجه الموضوعات نحو هذا



المجال، وكذا معلم التاريخ والجغرافيا[1].

مرت أجيال عدة، رأيت طلابي بعد تخرجهم، ومنهم كثيرٌ ممن لم يكونوا محطّ اهتمام ورعاية؛ لأنهم لا يندرجون تحت المفهوم الدعوي الذي رسمناه لأنفسنا وقتذاك، وقادني ذلك لإعادة النظر في الدور الدعوي للمعلم.

فرغم أهمية الوعظ والنصيحة والتوجيه والدعوة إلى التوبة والاستقامة، ورغم أهمية ما يصطلح عليه بالدور التقليدي في العمل الدعوي[2]، فلم يعد ذلك هو المهمة الأولى للمعلم، بل أصبح جزءًا منها.

حين يُتاح لك أن ترى طلابك بعد عقد أو عقدين لا تلبث رؤيتك للدور الدعوي أن تمتد لتشمل:

- تنمية الجدية والفاعلية لدى طلابك، ولو كان لدى بعضهم قصور في تدينه.
- تنمية الإرادة والثقة بالنفس، والشعور بالقدرة على النجاح في الحياة.
- تنمية التفكير والقدرة على اتخاذ القرار.
- تنمية البناء العلمي لدى الطلاب، مهما كان التخصص الذي

(١) من الطريف أن أحد زملائنا من معلمي الجغرافيا اضطر لتغيير أسئلة الامتحان حين سمع إشاعة من أحد الطلاب بأن الخارطة المتوقعة في أسئلة الامتحان هي خارطة أفغانستان -وذلك أيام الجهاد الأفغاني- وبرّر الطالب توقعه بأن المعلم متدين.

(٢) هذا الوصف لايعني التقليل أو التهوين؛ إنما هو وصف يقابل المهام الأوسع.

يدرسونه.

- تنمية الاتجاه نحو التدين، وإذابة الحواجز نحو المتدينين، ولو بقي الطالب على تقصيره.

إن ما ذُكر لا يعدو أن يكون مثالاً لما يمكن تحقيقه لدى المتعلمين، وهو جزء مهم من وظيفة المعلم الدعوية.

إن هؤلاء الذين نراهم اليوم صغارًا بين أيدينا على مقاعد الدراسة سيصبحون قادة الرأي في المجتمع، وصُنّاع القرار، وأرباب الأسر، والموجهين والمؤثرين في الحياة.

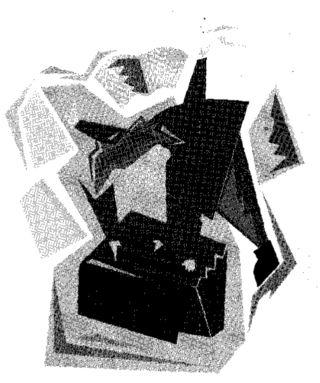
قلت في لقاء رسمي عام جمعني مع عدد من المعلمين، وقد رأيت بينهم بعض طلابي -بل كان المشرف التربوي الذي قدّم للقاء أحدهم-: إن الوزراء، وأعضاء المجالس التي تصنع القرار، وكبار العلماء، والضباط والمسئولين بعد ثلاثة عقود أو عقدين هم اليوم بين أيديكم على مقاعد الدراسة.

وما أتمناه من إخواني وأبنائي المعلمين من الجيل الجديد أن يتسع أُفُقُهم لهذا الدور وهذه المهمة.



سنوات مجلة

د.محمد الد



التوازن

أن الصرامة والجدية في إدارة الآخرين كفيلة بالتغيير وتحقيق الأهداف التي نريد، ويغيب عنا أن مصدر الخلل والقصور ليس محصورًا في افتقاد الناس إلى الجدية والصرامة.

إن الصورة نفسها تتكرر في النظرة إلى الأسرة؛ فالذين لم يصبحوا آباءً بعدُ يبالغون في لوم الآخرين على تقصيرهم، ويختزلون الأمر بالإدارة الصارمة للأسرة والمتابعة للأولاد[1].

وكثيرًا ما يتحدث الآباء والأمهات عن واقع المعلمين والمعلمات، وتقصيرهم في دورهم ورسالتهم التربوية، حتى لَيخيل إليك أن مفتاح الحل إنما هو بيد المعلمين والمعلمات.

وحين تنتقل إلى الضفة الأخرى فتستمع إلى حديث المعلمين والمعلمات عن الأسرة وتقصيرها، وعن دور الوالدين ومسئولياتهم؛ فستحسب أن الأسرة هي وحدها مصدر الخلل.

لقد تعلَّمت من تلك التجارب الكثير، تعلَّمت أن كثيرًا من الأمور أعقد مما نتصور؛ فالظواهر البشرية لا ترتبط بعامل واحد أو متغير واحد.

تعلَّمت أهمية الحماسة والعاطفة الجياشة، وسوء تبلّد الإحساس، لكنهما مع ذلك ليسا البلسم الشافي، ولا الدواء الناجع في كل

(١) لا شك أن هناك كثيرًا من التقصير والخلل لدى عدد من الآباء والأمهات، وأن الإهمال له أثره في ضياع الأولاد، لكن المشكلة لا يمكن اختزالها بالإهمال وحده؛ فالتربية غدت عملية معقدة تحتاج إلى قدر من التأهيل والخبرة، وحين يمتلك الوالدان الخبرة الكافية فثمة مؤثرات وعوامل أخرى لا يتحكمان بها.

مشكلة وموقف.

إن أملنا في مَن يرعون أبناءنا وبناتنا أن يجمعوا بين الأمرين معًا:

- الحماس والعاطفة الجياشة التي تدفع للعمل.
- والأفق الأوسع، والقدرة على التعامل مع المواقف برؤية أشمل تتجاوز اختزالها في الصورة الظاهرة المباشرة.

إن امتلاك المربين للأفق الواسع، وقدرتهم على النظر للموقف من زوايا عدة، سيترك أثره على رؤيتهم وأحكامهم، وتعاملهم مع المواقف، وهو أمر له أهميته، لكن النتيجة التي لا تقل أهمية عن ذلك هي أن امتلاك هذه الرؤية عاملٌ مهمٌ من عوامل بنائها لدى طلابهم؛ فالطالب الذي يتربى على يد معلم ينطلق من رؤية أحادية صارمة، لا ينبغي أن نلومه حين يصبح هو الآخر أكثر حدة وأضيق أُفقًا.





لاتحقروا طلابكم

سنوات معلما

د. محمد الدويش





مع بداية عملي في التعليم كنت أنظر للطلاب نظرة صارمة، وكنت أصدر أحكامًا قاسية عليهم في داخلي، وأتعامل معهم في ضوء هذه الأحكام، فمن يتفوّه بكلمات سيئة، أو يمارس مخالفات شرعية ظاهرة، أنظر إليه على أنه لا خير فيه، وأنه سيئ فاسد.

إن استنكار المعصية لا بد أن يبقى حيًّا في أنفسنا، والرغبة في دعوة الآخرين لا ينبغي أن تدعونا إلى التقليل من شأن المخالفة الشرعية، لكن ذلك لا ينبغي أن يقودنا إلى القسوة في النظرة للآخرين، أو نسيان جوانب الخير في أنفسهم.

تعلَّمت من تجربتي في التعليم أن كثيرًا من هؤلاء يملك دافعًا خيّرًا، وأن كثيرًا منهم يمكن توجيه طاقته لمجالات نافعة إذا أحسنّا المدخل المناسب.

عددٌ ممن لا زالوا على مظاهر توحي بعدم التدين والبعد عن

الاستقامة يتعاملون معي بترحيب وتقدير، يتواصلون معي بالاتصال والزيارة والحفاوة.

أما أثناء التعليم فكانت صلتهم أقوى والتواصل مُوحٍ بأنهم على خلاف ما قد نصنّفهم.

تعلَّمت أن من أكثر ما يؤثر على أنفسهم: الاهتمام بهم، والتبسط والعدل في المعاملة؛ فقد عبّر لي أحدهم قائلاً: «مما تمتاز به أنك لا تفرق بين ملتزم وغير ملتزم».

وتعلَّمت أن إدراكهم وعي المعلم لواقعهم ومشكلاتهم، وتفهّمه دوافعهم من أقرب ما يعين على كسر الحواجز معهم.

وأن الاستعانة بهم والإفادة منهم يعطيهم قيمة وشأنًا لدى أنفسهم.

كنت أريد إلقاء محاضرة حول الأفلام، وكانت ثقافتي وقتها عن الأفلام محدودة، فلا أعرف تشغيل الفيلم، ولا أفرق بين مقاسات الأفلام أو أحجامها، قرأت كثيرًا عن الموضوع، لكنني شعرت أني سأتحدث عن موضوع لا أدرك أبعاده.

عرضت الأمر على طلابي، وطلبت ممن له تجربة شخصية في مشاهدة الأفلام أن يتبرع بالجلوس معي، وإعطائي بعض المعلومات، رحّب أحدهم، وتفاعل وجلس معي، وسمعت منه كثيرًا، واستفدت مما قدّم لي، ثم زاد بأن دوَّن الأفكار التي تحدث فيها معي حول الموضوع، وأحسب أن أوراقه لا زالت لديّ في أرشيف المحاضرة.

وذات مرة كتبت مطوية أخاطب فيها الشباب غير الصالحين،



فعرضت على طلابي أن يتبرع فئة منهم لقراءتها وتقويمها فتفاعل عدد منهم، وأفادوني بملحوظات أفدت منها كثيرًا.

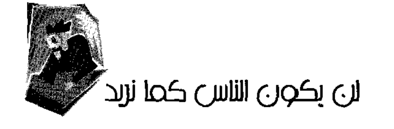
وفي مطلع شهر رمضان طلب مني طلابي كلمة فقلت لهم: دعوني أتحدث معكم حديثًا من نوع آخر، فشجّعتهم على القيام بأدوار وأعمال دعوية، وأن غير الصالحين مخاطَبون بذلك كغيرهم، فرأيت نماذج لم تكن تخطر في بالي من العطاء والتفاعل، بل كان تفاعل كثير منهم أكثر من بعض الصالحين، وقدموا أفكارًا جيدة استطاعوا فيها توظيف جهود الآخرين من زملائهم، أو من أئمة المساجد.

شعرت حينها أننا نخسر طاقات كثيرة في المجتمع، وأننا نُسهِم في صنع سياج بيننا وبين الآخرين.

ربما لا نقصد صنع هذا السياج، لكن أسلوب الخطاب، وأسلوب التعامل، يقود إلى ذلك.

وبقدر ما لمست من جوانب للنجاح فقد تحسَّرت كثيرًا على فرصٍ عديدة، تحسرت وأنا أرى طائفة من طلابي بعد حين في مواقع مهمة، تقدمتْ أعمارهم وعقولهم، لم يعودوا أولئك المراهقين العابثين، ولا الصبيان المزعجين، وأدركت حينها أنه كان بإمكاني تقديم الكثير، فأسأل الله المغفرة والعفو عن التقصير.

وفي مقابل هذا النجاح ثمت جوانب إخفاق قادت إلى مزيد من صنع الحواجز وتراكم الجليد، ومن أكثرها تأثيرًا أن يشعر الطالب بنوع من الاستهانة به لعدم تدينه، أو إهمال بعض حقوقه، أو تمييز الآخرين عنه.



خلق الله عز وجل الناس يتفاوتون في أمور شتى، في قدراتهم وطاقاتهم، في طريقة تفكيرهم، في نظرتهم للواقع وتعاملهم معه، في تدينهم وتقواهم، بل في فهمهم للتدين ونظرتهم له.

ومداخل التفاضل عند أهل المناقب تختلف من شخص لآخر، وها هم أصحاب النبي ﷺ يتفاوتون فيما بينهم في الفضائل، وقد وصفهم ﷺ بقوله: «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدهم في أمر الله عمر، وأصدقهم حياءً عثمان، وأقرؤهم لكتاب الله أُبَيّ بن كعب، وأفرضهم زيد بن ثابت، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، ولكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة» [١].

(١) أخرجه الترمذي (٣٧٩٠) وقال: حديث حسن.

وقال معاوية -رضي الله عنه-لصعصعة بن صوحان: صف لي الناس، فقال:«خُلق الناس أصنافًا: فطائفة للعبادة، وطائفة للتجارة، وطائفة خطباء، وطائفة للبأس والنجدة، ورجرجة فيما بين ذلك يكدّرون الماء، ويغلون السعر، ويضيقون الطريق».

في ميدان التعليم أتيح لي أول مرة أن أتعامل مع أطياف عدة من المعلمين والإداريين، وهم عدد ليس قليلاً، يتفاوتون في جوانب عدة، أعي هذا التفاوت وأدركه من الناحية النظرية، لكني في المواقف العملية أخفق في التعامل معه.

في حالات عديدة أرسم صورة أبالغ في تحديد إطارها ورسم حدودها، ثم أجعل هذه الصورة معيارًا لما أنتظره من الآخرين، وتتحول هذه الصورة إلى معيارية لتقويمهم والحكم عليهم، وفي المقابل أتجاهل بعض جوانب التميز التي يملكونها؛ لأنهم عاشوا خارج إطار الصورة التي رسمتها.

قد يملك أحدنا غيرةً على المنكرات، ويفتح الله له باب خير في إنكارها والاحتساب على أهلها، والآخر يُعنَى بالتوسع في المسائل العلمية وأدلتها وتفاصيلها، والثالث يُعنَى بالنشاطات الدعوية مع أي فئة من فئات المجتمع.

والاعتناء بهذا الأمر أو ذاك ليس معيبًا؛ إنما العيب في المبالغة في تضخيم دَوْرٍ من أدوار الإصلاح، واعتبار درجة التفاعل معه - وفق الصورة التي نرسمها - معيارًا لتقويم الآخرين والحكم عليهم، ولئن كنا نمارس هذا النموذج داخل دائرة الصالحين والمتدينين، فكيف يكون الأمر حين تتسع الدائرة؟

حين انتقلت إلى ميدان التعليم تعاملت مع دائرة أوسع من ذي قبل، والحق يقال: إن معظم العاملين آنذاك نخبة متميزة في التدين والأخلاق والسلوك والغيرة، لكن الناس يتفاوتون كثيرًا.

يتفاوتون في السن والتجربة، ويتفاوتون في الروح والحيوية والحماسة، ويتفاوتون في نشأتهم وخبراتهم، ويتفاوتون في تقويم الواقع ومن ثَم رؤية المستقبل.

كما أنهم يتفاوتون في رؤيتهم لدورهم ومهمتهم في ميدان التعليم، وفي أولوياتهم.

والأمر نفسه مع الطلاب بل دائرة التفاوت أوسع وأشمل.

إن قصور وعيي بهذا التفاوت قادني إلى التحرك في إطار تلك الصورة التي رسمتها للآخرين.

خسرت كثيرًا في التقويم الصارم للآخرين، وخسرت كثيرًا في غياب التواصل الإيجابي معهم، وخسرت كثيرًا في الإفادة منهم وتوظيف طاقاتهم، وتعلَّمت من ذلك الكثير:

- تعلَّمت أن أفرق بين ما أختاره لنفسي، وبين حكمي على الآخرين.

- وتعلَّمت أن أتقبل فئات الناس وما جُبلوا عليه.

- وتعلَّمت أن لكلٍّ مجالٌ واهتمام، وخصائص وطبيعة، وهذا من حكمة مَنْ خلقهم سبحانه، ولو شاء لجعلهم أمة واحدة.

- وتعلَّمت أنه ينبغي أن نسعى لتقويم الناس وتسديدهم، والتغيير الإيجابي لديهم، لكن ثمت خصائص وسمات قد يكون الأجدى التعامل معها كما هي، وبدلاً من جعلها وسيلة للتنقص

والنقد والتجريح، علينا أن نوجّه صاحبها بما يتلاءم معها، كما أوصى ﷺ صاحبه أبا ذر بقوله: «يا أبا ذر إني أراك ضعيفًا، وإني أحب لك ما أحب لنفسي، لا تأمَّرَنَ على اثنين، ولا تولين على مال يتيم»[1].

- كما تعلَّمت أن الإيمان بهذا المبدأ لا يعني أن نقرَّ سلوك الناس على ما هو عليه، ولا أن نبحث لهم عن المبررات، لكن موقفنا مما يعملون شيء، والتعامل معهم شيء آخر.

لقد كان النبي ﷺ أبغض الناس للمعصية، وكان كما قال عن نفسه أغير الناس، ومع ذلك كان في مجلسه من يشرب الخمر ويضحكه ﷺ، فأنكر ﷺ معصيته وأقام عليه الحد، ومع ذلك تعامل معه بما هو أصلح لحاله.

في يوم من أيام شهر رمضان، ونحن عند مكتب التوظيف التقيت بأحد أصدقائي، وكان يريد العمل في جهاز الحسبة، فقال لي: إن فلانًا - يقصد أحد المسئولين في المكتب- ضد جهاز الحسبة، ظننت أنه يعرفه من قبل أو سمع عنه، وإذا به يقابله لأول مرة، لكنه استنتج هذا الحكم من خلال رفض المسئول لتوجيه صاحبنا مباشرة لجهاز الحسبة؛ لأنه بحاجة لاستكمال بعض المعلومات.

ورغم أني خالفت صاحبي حينها، لكني كنت أمارس الدور نفسه في أحكامي على الآخرين في مواقف أُخَر.

إننا بحاجة لأن يتسع أفقنا في تقويم الناس والتعامل معهم، وإلى أن نعيد النظر في الأحكام الصارمة التي نطلقها عليهم.



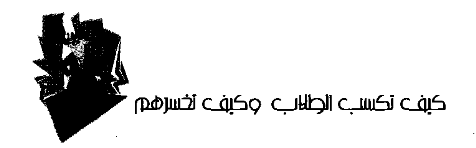
---

(١) أخرجه مسلم (١٨٢٦).



كيف تكسب الطلاب
وكيف تخسرهم





من أكثر الأسئلة التي تُثار في الميدان التربوي: كيف يكسب المعلم طلابه؟ وكيف يخسرهم؟

لستَ بحاجة لأن تقنع المعلم بأن العلاقة الودية بينه وبين طلابه أمر له أهمية بالغة، وأنها مفتاح التأثير والولوج إلى قلوبهم؛ فالإنسان كائن اجتماعي مهما بلغ من الموضوعية والإنصاف، ومهما امتلك من أدوات التعامل مع الأفكار والآراء لا يستطيع أن يتخلص من مشاعره وذاته، ويكفي في ذلك قول الله -تعالى- لنبيه ﷺ : (فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين) (آل عمران: ١٥٩) وقوله تعالى: (ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم)(فصلت: ٣٤).

إن الصلة الودية والمحبة المتبادلة لها أثرها في أمرين: أولهما استعداد الطالب للتعلم ومحبته للعلم، وثانيهما: في تلقيه للتوجيه، وتأثره بمعلمه.

وحين أتحدث عن العلاقة بين المعلم والطالب، سواء فيما يتصل بأهميتها وأثرها، أو في وسائل بنائها فلن آتي بجديد.

لكني هنا سأدون بعض تجربتي في هذا الميدان.

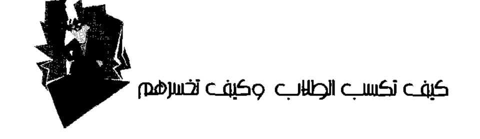
أثناء عملي في ميدان التعليم كسبت وُدَّ عدد من الطلاب وإعجابهم، وخسرت غيرهم.

وفي مقابل من يصنّفني في مرتبة متقدمة من المعلمين الذين أُعْجِبَ بهم، يوجد من يُدرِجني ضمن قائمة غير المرحَّب بهم، ولا المأسوف على مفارقتهم.

أذكر أني قلت لأحدهم مازحًا في حوار جادٍّ بيني وبينه: أعرف أنك لو رتَّبت من تكرههم، فربما أكون في المرتبة الثانية بعد الشيطان، لكني أتمنى أن تأخذ حديثي مفصولاً عن موقفك من شخصي.

وكانت علاقتي بأحدهم متوترة إلى حد كبير؛ فهو يتصف بصفتين: كثرة الجدل والنقاش دون داعٍ، والإهمال وعدم الحفظ في مقرر القرآن الكريم؛ فحصل على درجة ونصف في أعمال السنة [1] حتى أصبحت هذه الدرجة مضرب مثل، ومثارًا للتندر

(١) كان نصيب أعمال السنة عشرَ درجات، والامتحان الفصلي أربعين درجة آنذاك.



من قِبَل زملائي المعلمين.

قال لي أحد أصدقائه بعد عام: أتمنى أن تناصحه فهو يحبك كثيرًا ويثق فيك كثيرًا. نسيت الموضوع كله، وسألت صاحبي: كيف يمكن أن يحبني فلان؟ أنت لا تعلم صلتي به، فقال: أعلم جيدًا، لكن موقفًا واحدًا هو الذي صنع فيه ذلك الحب والتقدير، وهو الذي حوَّل نظرته إلي.

رسب صاحبنا في مادة اللغة الإنجليزية سنتين، وأُعطي فرصة ثالثة فاجتاز المقرر بعدها بصعوبة، قابلته في بداية العام، فهنأته على تجاوز العقبة، وأوصيته ببذل مزيد من الجهد حتى لا تتعثر مسيرتُه التعليمية مستقبلاً لضعفه في هذه المادة.

كان هذا الموقف هو الذي حوّل مشاعر صاحبنا إلى الطرف المقابل، فقد قرأ فيه الاهتمام والعناية.

وفي موقف آخر تغيَّب أحدهم عن الدراسة، فسألت عنه فقالوا مريض، فأوصيتهم بزيارته وإبلاغه السلام، واتصلت بمنزله فأجابتني والدته، وسألتها عن صحته وحاله، فجاء من الغد يبحث عني ويسأل، حتى قابلني شاكرًا وممتنًا، رغم ما كان يتسم به من صمت وحياء يعوقه كثيرًا عن التواصل، لكن مشاعر التقدير تركت أثرها عليه.

وثالث كان من طبيعته الحركة والعبث غير المقصود، وكثرة الضحك دون مناسبة، قلت له يومًا: إنك محل تقدير واحترام مني، أتمنى ألا تضطرني إلى تجاوزه. قال لزملائه: أول شخص

أراه في حياتي يعبّر لي عن تقديره واحترامه، ويشعرني بأني جدير بالتوقير، فصار يتكلف الهدوء والانضباط أملاً ببقاء هذه المنزلة لدى معلمه.

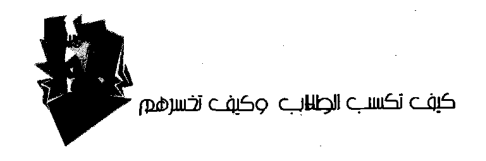
ورابع كان كثير الضحك، يخونه التعبير لضعف علاقاته، قلت له يومًا: أُدرك أن ما تمارسه ليس مصدره سلوكًا سيئًا، ولا خطأ متعمدًا، ولكن ليس جميع من تقابلهم من المعلمين يفهمون طبيعتك، فكان لذلك أثره البالغ عليه.

وفي موقف لن أنساه -وأظن صاحبي كذلك- اصطحبت طلابي في مادة الإنشاء لزيارة خارجية، وطلبت منهم بعد ذلك وصف الزيارة والتعليق عليها، كان صاحبي جريئًا، فقال: إن الشيخ[1] مع مَن كانوا معه في سيارته تناولوا مرطبات دون بقية المجموعة، أزعجني ذلك فقلت له: يمكنني الآن تعويضك بصندوقٍ كاملٍ من المرطبات، وتحوَّل الموقف إلى ملاسنة واجهته فيها بعباراتٍ قاسية فقضى هذا الموقف على مكتسبات عدة من العلاقة والصلة.

أدركت من تلك المواقف، من نجاحي وإخفاقي، أننا يمكن أن نكسب الطالب بموقف وكلمة، ويمكن أن نخسره كذلك.

وتعلَّمت أنه من النادر أن يكون المرء موضوعيًّا في أحكامه حين تتصل بالآخرين ممن يتعامل معهم، وأنه كما قيل:

(١) كان من السائد إطلاق لقب الشيخ على كل من يدرِّس في المعهد العلمي، بغض النظر عن تخصصه، حتى شملت بركة هذا اللقب أمين الصندوق والمراقبين والكتَّاب، وسائر أعضاء الجهاز الإداري.



وعين الرضا عن كل عيب كليلة

ولكن عين السخط تُبدِي المعايبا

وحين ندرك ذلك نستطيع أن نكون أكثر اعتناءً بمواقفنا وتعاملنا.

وتعلَّمت أني لن أكسب الجميع إلا حين أتنازل عن قدر من أهدافي، وحين يسيطر عليّ كسب مشاعر الطلاب، فقد أحقق ذلك وأخسر أهدافًا أهم من كسب مشاعرهم.

وتعلَّمت أن من أقرب الطرق إلى كسب محبة الطلاب ما يلي:

- البساطة والتلقائية في التعامل، والبعد عن النمط الصارم والقاسي.
- التميز والقدرة العلمية.
- الحرص والاجتهاد في الموقف التعليمي.
- الاعتناء بالنصح والتوجيه، وصدق العاطفة، وقد لمست أن كثيرًا منهم يقدّر ذلك حتى لو لم يُحدِث هذا تغييرًا ظاهرًا في سلوكهم.
- التواضع للطلاب، والتبسط معهم، والبعد عن الاستعلاء والفوقية.
- المرونة وتقدير ظروف الطلاب، وأذكر أني اتفقت مع طلابي على موعد لامتحانات فصلية، وبعد ذلك بأيام طالبوني بتأجيله، متعللين بأن هذا ثالث امتحان في اليوم نفسه، اعترضت بأنهم وافقوا من البداية، فقالوا نعم المواعيد الأخرى طارئة، لكن أصحابها لا يُقدِّرون، ولا مجال لديهم للحوار، فقبلت التأجيل الذي أضاف عليّ عبء تراكم العمل، لكني اكتسبت ما هو أهم من ذلك.

وتعلَّمت أن من أقرب الطرق إلى خسارة محبة الطلاب ما يلي:

- أن يلمسوا لديك الاعتداد بشخصك، أو الإيحاء بقدراتك ومعارفك، ولو كنت مازحًا؛ فالمزاح في حالات كثيرة يتحول إلى حقيقة، وقد عبَّر لي أحدهم في موقف خلاف بيني وبينه بأن شأني أقل من هالة صنعتها لنفسي، وكان محقًّا.

- القسوة والصرامة، والقرارات غير المبررة وغير المنطقية.

- غياب العدل، والجَوْر الذي يرون أنه متعمد من قِبلك، مع مراعاة أن تفسيرهم للمواقف ليس بالضرورة متفقًا مع تفسيرك. لحقني أحدهم معترضًا على تقديري لدرجة أعمال السنة، مقارنًا نفسه بزميل آخر، قلت له عبارتي المعهودة (إني لا أملك ميزان ذهب أقيس به الجميع فأصل إلى نتيجة عادلة) طلب مني فتح سجل الملاحظات، ثم قارن بين ما هو مدّون أمام اسمه واسم صاحبه من ملحوظات ومشاركات، قائلاً: أهذا يحتاج إلى ميزان ذهب لتدرك الفرق؟ اعتذرت منه، واعترفت بالخطأ، وعدّلت درجته. لم يكن الذي أثاره سوى أنه ربط الموقف بخلفيات سابقة معه ومع صاحبه، ولم يكن لها أثر مطلقًا لدي في تقدير الدرجة، لكن صاحبي فهمها كذلك.

- السخرية والعبارات التي توحي باحتقار الطالب، سواء أكان ذلك صراحة، أو إيحاء وإشارة، وحينما يبدو ضحك الزملاء من صاحبهم يزداد الجرح اتساعًا لدى من وُوجِهَ بالنقد والسخرية.

◆◆◆◆





من أعظم ما تشرفت به في حياتي العملية تدريس مقرر القرآن الكريم، وكان في ذلك تجربة أفدت منها كثيرًا في مستقبل حياتي؛ إذ كانت أطروحتي في الماجستير والدكتوراه تتصل بتدريس القرآن الكريم.

بدأت تدريس القرآن الكريم وأمامي هاجس سيطر عليّ كثيرًا.

كنت أرى ضعف الطلاب في تلاوة القرآن الكريم خلال مشاركتي في لجان الامتحان النهائية، لذا جعلت هدفي الأساس تحسين مستوى الطلاب في تلاوة القرآن الكريم، وسيطر عليّ هذا الهدف كثيرًا، وكان محور اهتمامي.

وحققت في هذه التجربة جوانب نجاح وجوانب إخفاق.

كان من حسن حظي أن استلمت تدريس المقرر بعد أن زاد

نصيبه من الخطة الدراسية من حصتين في الأسبوع إلى ثلاث حصص.

وكان القدر المطلوب حفظه من الطلاب ليس قليلاً، ففي الصف الأول الثانوي -الذي أُدرِّسه- كان منهج الحفظ يبدأ من سورة غافر إلى نهاية الجاثية.

وكان معظم المعلمين -إن لم يكن جميعهم- يخصصون حصتين للحفظ وحصة للتلاوة، أما أنا فكنت بخلاف ذلك لأسباب ثلاثة:

الأول: أني جعلت تحسين مستوى تلاوة الطلاب أهم الأولويات؛ لذا منحته النصيب الأكثر من الوقت.

الثاني: أن الحفظ سيتم، وسيقوم به الطالب، سواء تمت قسمته في حصتين، أم بقي في حصة واحدة.

الثالث: أن بقاء القدر المطلوب حفظه من الطالب مرة واحدة في الأسبوع سيتيح له التركيز عليه طوال الأسبوع، واستثمار يوم الجمعة بالتبكير للصلاة وتخصيص الوقت للحفظ.

وبِغَضّ النظر عن جدوى هذه الطريقة أو تلك؛ فقد حققتْ لي الأمرين معًا:

الأول: تحسين تلاوة عدد من الطلاب الضعاف.

الثاني: التزام معظم الطلاب بالحفظ والإتقان.

وكان من جوانب النجاح في تجربة تدريس القرآن الكريم ما يلي:

- جدية الطلاب في التعامل مع مقرر القرآن الكريم، واعتباره

مقررًا يتطلب بذل مزيد من الجهد؛ خلافًا للنظرة السائدة لدى كثير منهم.

- تحسن تلاوة عدد من الطلاب الضعاف بحمد الله.

- اعتناء معظم الطلاب بحفظ الجزء المقرر حفظه رغم طوله؛ إذ كان يتطلب حفظ صفحة في الدرس، وكانت المتابعة اليومية، ومتابعة المتغيبين عن الدرس مُعِينة على ذلك.

- الإفادة من الطلاب المتميزين في تلاوة القرآن الكريم وحفظه في إقراء زملائهم ومتابعتهم في الحفظ، وقد كنت أطبق طريقتيِ التعلم التعاوني وتعليم الأقران، فأفادت كثيرًا.

أما جوانب الإخفاق فهي عديدة، ومنها:

أولاً: أنه سيطر عليّ هاجس ضعف الطلاب في تلاوة القرآن الكريم على حساب بقية الأهداف، ومن أهم هذه الأهداف فهم القرآن الكريم وتدبره، وتنمية قدرة الطلاب على ذلك.

ورغم أني تلقيت توجيهًا من مشرف فاضل زارني في أحد دروس القرآن الكريم، إلا أني أصررت على ما كنت عليه.

أما اليوم فأرى أنه على الرغم من أهمية الاعتناء بمستوى الطلاب في الحفظ والتلاوة، فتنمية قدرتهم على فهم القرآن الكريم وتدبره أمرٌ لا يقل أهميةً عن إتقانهم لتلاوته وحفظه، وهو لا يتعارض مع درس التفسير الذي يتضمن التوسع والتفصيل في معاني الآيات ودلالتها.

ومن الضروري اعتناء المعلم بفهم الطلاب للقرآن الكريم من خلال الموقف الصفي، وتنمية قدرتهم عليه، وإكسابهم الأدوات

اللازمة لذلك، وتحقيق الربط لديهم بين التلاوة والتدبر.

والمهم أن يُراعي الوقت، وألا يقود هذا الأمرُ المعلمَ إلى الإغراق في التفاصيل، أو تحويل درس التلاوة إلى درس تفسير أو مواعظ.

ثانيًا: قادني الحرص على الارتقاء بمستوى طلابي إلى القسوة والصرامة المبالَغ فيها في التعامل معهم، ورغم ما يحققه ذلك من نجاح، إلا أن له آثاره التي لا تخفى، ومن ذلك أن عددًا من الطلاب يرتفع لديهم مستوى القلق ويؤثر على أدائهم حفظًا وتلاوة.

كما كنت ضيفًا ثقيلاً على عدد منهم، وشخصًا غير مرحَّب به في تدريس المقرر.

والآن أرى أني لو كنت أقل صرامة وبعيدًا عن القسوة لحققت إنجازًا أفضل، واكتسبت تقدير طلابي ومحبتهم، وزيادة رغبتهم في تحسين أدائهم.

ثالثًا: كنت أعطي اهتمامًا أكبر للطلاب الضعاف، وأمنحهم وقتًا أطول من غيرهم، مما كان على حساب غيرهم من الطلاب، حتى اشتكى لي بعضهم بأن معظم الدرس كان يمضي في قراءة فلان.

رابعًا: كان الحرص على متابعة الطالب، ومحاسبته عند التقصير، يقود إلى الحديث الطويل معه بعد قراءته، وهذا قاد إلى تأنيب وعتاب لم يكن مناسبًا للطالب أمام زملائه، كما قاد لأن يمضي جزء طويل من وقت الدرس في المحاسبة والعتاب والمساءلة.

حين زارني أحد المشرفين في درس القرآن الكريم، كنت حريصًا على إعطائه صورة عن مستوى الطلاب وتلاوتهم؛ فاخترت

للقراءة عددًا من الطلاب الضعاف فدفعت الثمن.

انزعج المشرف كثيرًا، وعاتبني على ضعف مستوى الطلاب، وقام بتدوين الملحوظات في سجل الزيارات لدى الإدارة، ولم أنجح في إقناعه بأن عملي مع هؤلاء الطلاب لم يتجاوز الشهر، وأنهم درسوا قبلي ثلاث سنوات؛ فالمعلمون السابقون أولى بالملامة.

استوعبت الدرس بعدها وفي العام القادم تغيرت الصورةُ مع المشرف الآخر الذي زارني.

لقد كان مصدر ذلك الخطأ في نظري افتراضي أن الآخرين يفكرون كما أفكر، لكن الأمر بخلاف ذلك؛ فالمشرف التربوي اعتاد أن يُختار له المتميزون، وكل ما أقوله من شرح لموقفي سيتعامل معه على أنه تبرير لتقصيري.







درس الإنشاء



الإنشاء أو التعبير -كما يسمى- درس لا يخلو من ثِقَل؛ فهو يتطلب بذل جهد من المعلم في قراءة كراسات الطلاب وتصحيحها، وهو ليس محل ترحيب لدى معظم الطلاب، فهم لا يقتنعون بهذا المقرر وجدواه، ولا يملكون القدر الكافي من الجدية التي تقودهم إلى الكتابة، ولا الجرأة التي تقودهم إلى الحديث أمام زملائهم.

قُدِّر لي أن أتولى تدريس الإنشاء في المرحلة الثانوية عامًا واحدًا، وكانت تجربة ثرية، فيها جوانب نجاح وإخفاق.

كنت أمام تحديات عدة:

- إلزام الطلاب بأداء الواجبات المكتوبة في مواعيدها المحددة، وهي تتطلب قدرًا من الجدية لا يملكه كثيرٌ منهم.

- تحقيق أهدافي التي أسعى إليها من هذه المادة، وهي تصطدم

مع نظرة الطلاب لمادة الإنشاء، وحين تكون جادًّا في التعامل مع المادة فستصبح مثار تعليقات ساخرة منهم قد تسمع بعضها، ويخفى عليك أكثرها، وأسوأ من ذلك ألا تكون محل ترحيب من طلابك.

- التعبير الشفوي والإلقاء، وهو هدف له أهميته العالية، وبالأخص مع واقع طلابنا الذين لا يحسنون الحديث أمام الآخرين[1].

ولقد لقيت قدرًا من الصعوبات والمعاناة، لكن حرصي على اللطافة والدعابة مع طلابي، والتعامل مع المواقف بقدر من الهدوء والتبسط أعانني على تجاوز عدد من هذه العقبات.

حققت قدرًا من أهدافي في هذه المادة، وأخفقت في كثير.

كسرت حاجز النمطية والتقليدية في الموضوعات التي يكتبها الطلاب، وطالبتهم بموضوعات لم يعتادوا عليها، واجَهْتُ استغرابًا من فئة، وسخرية من أخرى، وإعجابًا من قلة منهم.

فقد طالبتهم باختيار مقال من صحيفة محلية يحوي مخالفات شرعية ونقده، واشترطت عليهم إرفاق قصاصة المقال مع ما يكتبونه.

اكتشفت في هذا الموضوع طاقات عدة كانت كامنة، بل اكتشفوا

(١) كثير من الانتقادات التي نوجهها لطلابنا: ضعفهم في التلاوة، في الإملاء، في اللغة العربية... ينبغي أن نوجهها لأنفسنا فنحن الذين علّمناهم، ومناهجنا ومدارسنا هي التي خرجتهم.



هم أنفسهم، وأدركوا أن قدراتهم أعلى بكثير من تقويمهم لها.

واجه عدد منهم صعوبة العثور على مقالة قابلة للنقد، ولجؤوا إلى حيل كانت محل جدل يُذكِّر بخلاف الفقهاء حول الضوابط والشروط.

فمنهم من يعمد إلى الإعلانات التي تحوي مخالفة، وأكثرها عن أشرطة ومواد غنائية، ثم يتحدث عن حكم الغناء.

ومنهم من يعمد إلى الرسوم الساخرة (الكاريكاتير) وهي مجال واسع يحتمل التأويل والتفسير.

وأحدهم عمد إلى مَثَل نُشر في الصحيفة قائلاً: فإن كان صاحبه يقصد كذا، وإن كان يقصد كذا..، ودوّنت على كراسته ألا ترى أن في الأمر تكلفًا فقال: بلى، دفعني لذلك أني لم أجد غير هذا الطريق.

طالبتهم بالحديث عن موضوع الأقليات الإسلامية، وجمع مادة حول الموضوع، ثم أصبح الموضوع هو سؤال الامتحان؛ ولأن المصححين من متخصصي اللغة العربية، ولن يكون لي مكان بينهم، فقد احتَلْتُ على المصححين بجعل الموضوع في عناصر ثلاثة، وقسّمت الدرجة عليها، وطالبت الطالب أن يأتي بحقائق وأرقام.

لم يواجه صعوبة في الموضوع إلا أولئك الطلاب الذين لم يتفاعلوا مع الموضوع أثناء عرضه، فلا مجال فيه للحديث من خلال الخبرة الشخصية المجردة.

أجرينا مرة حوارات طويلة حول واقع الممارسة الرياضية،

وكانت ممتعة، وأتاحت الفرصة في المشاركة لعدد من الطلاب غير الجادين؛ إذ هم في الأغلب من المهتمين بالرياضة والمتابعين لها.

اكتشفت طاقات، وأعنت عددًا على معرفة قدراتهم، وكسرت حاجز النمطية والتقليدية، وأوجدت قدرًا من الجدية والاحترام للمادة لدى بعضهم.

ولكني أخفقت في الكثير:

صنعت قدرًا من عدم الترحيب بالمادة، وبشخصي معلمًا لها لدى عدد من غير الجادين، وهي نقطة توازن تحتاج إلى مراعاة: كيف نقف موقف الوسط بين صناعة القبول للمادة، ولعلاقتنا مع الطلاب، وبين تحقيق أهدافها؟

كيف نستطيع أن نفيد طلابنا، ونرتقي بخبراتهم وأدائهم، دون أن نغذّي مشاعر الكراهية تجاه الموقف التعليمي وتجاه أشخاصنا؟

وفي المقابل كيف نغرس الرغبة في التعلم ومحبة المادة، ومحبة المعلم دون أن يكون على حساب أهداف المادة؟

أعرف بعض الزملاء الذين يستمتع الطلاب بطُرَفهم ومداعباتهم ويحبونهم لكنهم لم يصنعوا شيئًا، بل علّموا طلابهم ألا يكونوا جادين، وأخيرًا دفع طلابُهم الثمن في نتائج متدنية، وتحصيل أكثر تدنيًا.

ونموذج آخر كان صارمًا جادًّا لكنه أوجد قطيعة بين طلابه وبين العلم والرغبة في التعلم، وصنع جليدًا من الكراهية بينه وبينهم.

اتخاذ المواقف المتطرفة من أسهل ما يكون، لكن التحدي هو أن نقف موقف الوسط والتوازن.

ومما أخفقت فيه أني لم أتوازن في أهداف المقرر، وسيطرت عليّ نظرة لا تنفصل عن نظرتي للدور الدعوي للمعلم الذي تناولته فيما مضى من هذا الكتاب؛ إذ شعرت أن حسن توظيف المادة يتمثل في حجم المحتوى الشرعي لها، ومن هنا تحولت المادة إلى أحد فروع العلوم الشرعية بدلاً من أن تكون منتمية للغة العربية.

وبرغم ما تحقق من أهداف في ذلك؛ فقد فات الطلاب الكثير، فاتهم: التركيز على القدرة في التواصل الشفوي، مهارات الإلقاء، لغة الجسد، التعبير عن الفكرة، تصوير المواقف، التحليل والنقد.... إلخ.

أهداف عديدة كان ينبغي الاعتناء بها، وتنميتها في هذا المقرر، لكنها ذهبت ضحية النظرة المحدودة لمعلم المادة آنذاك.

ومن نظائر هذا اللون من التفكير ما نراه عند عدد من المعلمين اليوم من اختزال أهداف النشاطات الطلابية في نمط محدد وهدف وحيد، وما نراه من بعض من يتولى نشاطات ومؤسسات اجتماعية فيكرر من خلالها تجربة مراكز الدعوة والإرشاد.

إن سعة الأفق لدى معلمينا مطلب مهم، والنظرة الأوسع للدور الذي يمكن أن يؤدونه في بناء المجتمع بأفراده ومؤسساته هي التي ستدفعنا إلى عطاء إصلاحي أوسع في مجتمعاتنا.

◆◆◆◆



إدارة الصف

سنوات معلما

د.محمد الدوس





يُعدُّ نجاح المعلم في إدارة الصف عنصرًا مهمًّا في التدريس، وحين يُخفق في ضبط الصف يفقد معظم جوانب تميزه.

وتزداد المشكلة حين تكون السمة العامة في المدرسة هي التفلت وضعف الانضباط.

تشكّلت لدي - كغيري - صورةٌ عن النموذج الناجح في إدارة الصف؛ إنه النموذج الصارم الحازم، والمعلم الناجح هو مَن لا يُسمع لديه همس ولا حركة، أما الأكثر نجاحًا وتميزًا فهو ذلك الذي يبقى الطلاب قبل دخوله الصف متسمرين في أمكنتهم - كما يقال - دون حاجة لما يسمى بالعريف الذي يتولى ضبط الطلاب إلى أن يدخل المعلم.

بدأت حياتي في التعليم بممارسة النمط الصارم الحازم، فأفادني ذلك قدرة على إدارة الصف، لكنه أضاف عليَّ عبئًا ثقيلاً، فكنت

أعيش قلقًا وتوجسًا، وكنت أعاني من بعض الفصول التي تتسم بقدر من العبث، ويكثر فيها كبار السن والمشاكسون.

هذا النمط كان يقود إلى المبالغة في المحاسبة على الأخطاء المخلة بانضباط الصف، وإلى الصرامة التي قد تؤثر سلبًا على التحصيل، ويقود إلى المبالغة في الشك في تصرفات الطلاب، وغلبة التفسير السيء لها.

وأدى إلى أن أواجه العديد من المواقف المحرجة والمزعجة، وأن أتخذ قرارات أندم عليها، وأدفع ثمنها أحيانًا.

ومع مرور الوقت تغير هذا النمط؛ فأصبحت أكثر تبسطًا وأريحية، وأكثر تواصلاً مع الطلاب، فذابت كثير من حواجز الجليد في العلاقة والصلة، وأراحني ذلك كثيرًا؛ إذ كنت أدخل الصف بهدوء، وأتحدث بهدوء، وأتعامل مع المشكلات بهدوء.

ذات يوم وأنا أكتب في السبورة عمد أحد الطلاب إلى أن يعكس نور الشمس نحوي بساعته، وهو أسلوب يستخدمه الطلاب العابثون.

يعمد بعض المعلمين في مثل هذا الموقف إلى رفع الصوت، وفتح محضر للتحقيق، وإحالة المتهم أو المتهمين - إن لم يجزم بأحدهم - إلى الإدارة، ويدفع الصفّ كله ثمنَ هذا الموقف، ويشاركهم المعلم هو الآخر فيزداد انفعاله وقد يفقد توازنه.

ولا أخفي القارئ سرًّا أن هذا الموقف لو كان في سنواتي الأولى لفعلت كما يفعل هؤلاء وربما أشد.

التفت مبتسماً لجهة الطالب - فأنا لا أعرف من هو تحديدًا



- وقلت له ولزملائه: أعرف أن معظم من يصنع هذا إنما يقصد إضحاك زملائه وليس بالضرورة نتيجة سوء خلق، أو قصد إهانه للمعلم، ومن حسن حظك يا عزيزي أن كان الموقف معي وليس مع من يصعّد الأمر.

مضى درسنا بهدوء، ثم تبعني الطالب بعد نهاية الدرس معتذرًا بأن الأمر لم يكن مقصودًا، افترضت صدقه ومرَّ الأمر بسلام.

وذات يوم استأذنت من طلاب الصف لأشرب الماء وأعود، فقال لي أحدهم: أحضر لي ماءً، ولحسن الحظ وجدت لدى برّادة الماء كوبًا لا يحمل السلسلة الحديدية كالعادة فأحضرته للطالب، فوجئ بالموقف ولم يستطع إكمال شرب الماء، واعتذر بعد أن تصبب عرقه.

وأردت مرّة أن أستريح قليلاً على الكرسي -وليس من عادتي الجلوس- جلست عليه وقد فُرشت عليه سجادة فكان مكسورًا وهويت أرضًا، ضحك الطلاب، ضحكت معهم، وحين هدأت العاصفة قلت لهم: أقترح عليكم مستقبلاً أن تمزحوا مع غير معلم القرآن الكريم، فأقسموا أن الأمر لم يكن مقصودًا.

تتكرر مثل هذه المواقف، وبإمكان المعلم والمعلمة أن يكونا صارمين، وأن يعتبرا الأمر إهانة لهما، ومن حق المعلم أن يختار ما يراه أليق.

أما أنا فتعلَّمت العفوية والبساطة فأفادتني كثيرًا.

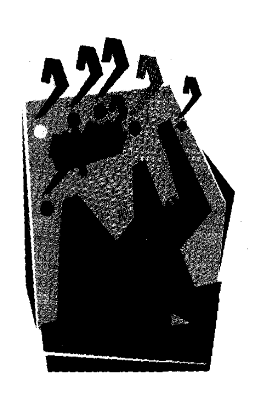
قلَّ مستوى الانفعال والقلق لدي، وأصبحت أتعامل مع طلابي بهدوء.

في معظم الأحوال لم تكن الأخطاء مقصودة، وحتى حين تكون مقصودة ما يلبث الطالب أن يبادر بالاعتذار.

كنت أظن كغيري من المعلمين أن هذا النموذج في التعامل يضعف الهيبة ويكسر الحاجز فاكتشفت خلاف ذلك.

حين نكون كبارًا، ونحفظ وقارنا، ونتجنب أن يستفزنا الطالب نرتاح ونريح، والأهم من ذلك كله أننا نُعلِّم طلابنا كيف يديرون انفعالاتهم، وكيف يضبطون مشاعرهم، وكثير من هذه القيم نُعلِّمها سلبًا وإيجابًا لطلابنا من خلال سلوكنا وتعاملنا أكبر بكثير مما نقوله لهم بألسنتنا.





التميز العلمي





تحقيق التميز العلمي للطالب مطلب مهم، ولا تزال الشكوى تزداد من الضعف والقصور العلمي لدى الطلاب، يضاف لذلك فتورٌ في الرغبة والعزيمة، وهذا الهمّ يلقي بظلاله على فئام من المعلمين ممن يسوءهم هذا الواقع فيسلكون مسالك شتى.

فمنهم من يدب اليأس إليه، ويستولي عليه الإحباط؛ فيترك هذا الشعور أثره على أدائه وعطائه.

أما المستجد في ميدان التعليم فيأتي بهمة عالية، وطموح ومثالية يريد أن ينهض بمستوى طلابه.

بدأت مسيرتي في تدريس العلوم الشرعية بعد تخرجي من الجامعة التي كنت أتلقى فيها من نخبة جادة من الأساتذة، وصحبت فيها زملاء يملكون قدرًا عاليًا من الجدية والتميز العلمي.

بدأت أدرِّس طلابي مادة الحديث من عمدة الأحكام، وكنت أبذل جهدًا في التحضير والإعداد، وأجتهد في تقديم المزيد من المعلومات للطلاب، وكان عدد منهم يدوِّن على كتابه ما يسمعه من فوائد مما هو خارج عن المقرر.

وكان البقية بل معظمهم خارج الدائرة، وكثير مما يقال لا يفقهونه ولا يعونه.

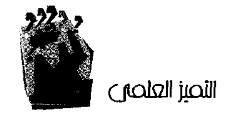
كان هذا المنحى محل إعجاب عدد من الطلاب الجادين المتميزين، واستنكار كثير غيرهم.

سرت على هذا المنحى مدة ثم تغير الأمر.

فقد أدركت أن المعيار فيما أقدمه لا يرتبط بالضرورة بالكمّ وحده، ولا بمقدار ما يدوّنه الطلاب على كتبهم من تعليقات وإضافات، أدركت أن الموقف التعليمي ينبغي أن يراعي كافة فئات الطلاب دون النخبة منهم والفئة الجادة وحدهم.

بعدها كانت لي تجربة أخرى عشتها وأنا أدرس التفسير، فقد حرصت في البداية على أن يسهم الطلاب في استنباط الفوائد والدروس من الآيات المقررة، وكعادتهم كانوا يكررون ما يقرءونه في الكتاب، وكنت لا أرحب بما يُنقل نصًّا من الكتاب فواجهت صعوبة في البداية، لكن مع مرور الوقت والمحاولة، والتعلم من قبل الطلاب تغير الأمر كثيرًا.

لقد ارتقى أداء الطلاب في الاستنباط والاستنتاج، وصار الدرس مفعمًا بالحوار والنقاش العلمي، ورأيت نتيجة ذلك واستمتعت به وأنا أقرأ إجاباتهم في الامتحانات.



حينها أدركت أن إعطاء المعلم لطلابه مزيدًا من المعرفة ليس هو أهم ما يقدمه لهم، فأهم من ذلك تعليم عمليات العلم ومهاراته، وتنمية قدرة الطلاب على الفهم والاستنتاج والتعامل مع المعرفة.

وتبقى المعرفة المباشرة التي يقدمها المعلم ذات أهمية، لكن لا بد أن تتلاءم مع قدرات الطلاب وفهمهم.

وتعلّمت من صلتي بغيري من المعلمين الأفاضل أن التميز العلمي لدى المعلم، وحرصه على الارتقاء بطلابه ليس بالضرورة كافيًا.

ثمت نماذج من الحرص على تحقيق التميز العلمي نراها لدى بعض إخواننا الأفاضل ممن يملكون علمًا وفكرًا متميزًا، نستمتع بالنقاش والحوار معهم، لكن أثرهم كان أقل بكثير من قدراتهم، إنهم يتحدثون عن مستوى طلابهم، يتبرّمون ويتضايقون، يؤكدون أهمية التحصيل العلمي وضرورته، لكنهم لم يوفقوا للمسلك المناسب.

كثيرٌ هم الطلاب الذين لا يرحبون بأمثال هؤلاء، بل قلة هم الذين يتمنون رؤية أسمائهم في الجدول الدراسي.

يدرك إخواننا هذا، لكنهم يفسرونه بما يؤيد نظرتهم، وما يختارونه لأنفسهم، ويفسرون ذلك أن مصدره ضعف جدية الطلاب وقلة حرصهم وفرط بحثهم عن الراحة والعبث.

إنهم يديرون الصفّ بصرامة بالغة، يوجّهون النقد اللاذع للطالب، يجعلون من الحبة قبة، ومع ذلك لا يحققون ما يطمحون إليه.

فئة أخرى -من معلمي العلوم الشرعية بوجه أخص- يرون

قلة اهتمام الطلاب بمقرراتهم على حساب ما يسمى بالمقررات العلمية؛ ذلك أنه ترسَّخ لدى كثير من الطلاب أن مواد العلوم الشرعية لا مجال للرسوب فيها، وأنه يكفي أن تستذكَر في وقت الامتحان فحسب.

هذا الشعور يزعج معلم العلوم الشرعية، ويرى فيه تهوينًا من شأن العلم الشرعي، وأن العلوم الأخرى لا يسوغ أن تكون أكثر أهمية من العلوم الشرعية؛ لذا فإنه قد يسلك خطوات تزيد من حجم المشكلة بدلاً من علاجها.

لا شك أننا بحاجة لتنمية الاهتمام بالعلوم الشرعية، وتعزيز الاعتناء بها لدى الطلاب، ولكن يجب أن نراعي ما يلي:

- جزء من موقفنا من سلوك الطلاب مصدره حرصنا على مكانة العلوم الشرعية لديهم، بينما جزء آخر مصدره الانتصار لأنفسنا؛ لأننا بأشخاصنا ضحية ضعف اهتمامهم بالعلوم التي ندرِّسها.

- ما نسلكه من تأكيد على أهمية العلوم الشرعية، وأحيانًا إشعار الطلاب بأنهم يمكن أن يرسبوا في مقررات العلوم الشرعية، وأحيانًا الأسئلة الصارمة، وأخرى التقتير في منح الدرجات، هذا الأمر ليس بالضرورة هو المنحى الأفضل في تغيير الاتجاه نحو مقررات العلوم الشرعية، أو تنمية محبة الطلاب لها.

- ينبغي أن نكون واقعيين فواقع مقررات العلوم الشرعية يفرض على الطالب هذا النوع من التعامل؛ فهو لا يحتاج فيها إلى المعلم، ويكفيه قراءة الكتاب أيام الامتحان للنجاح وربما

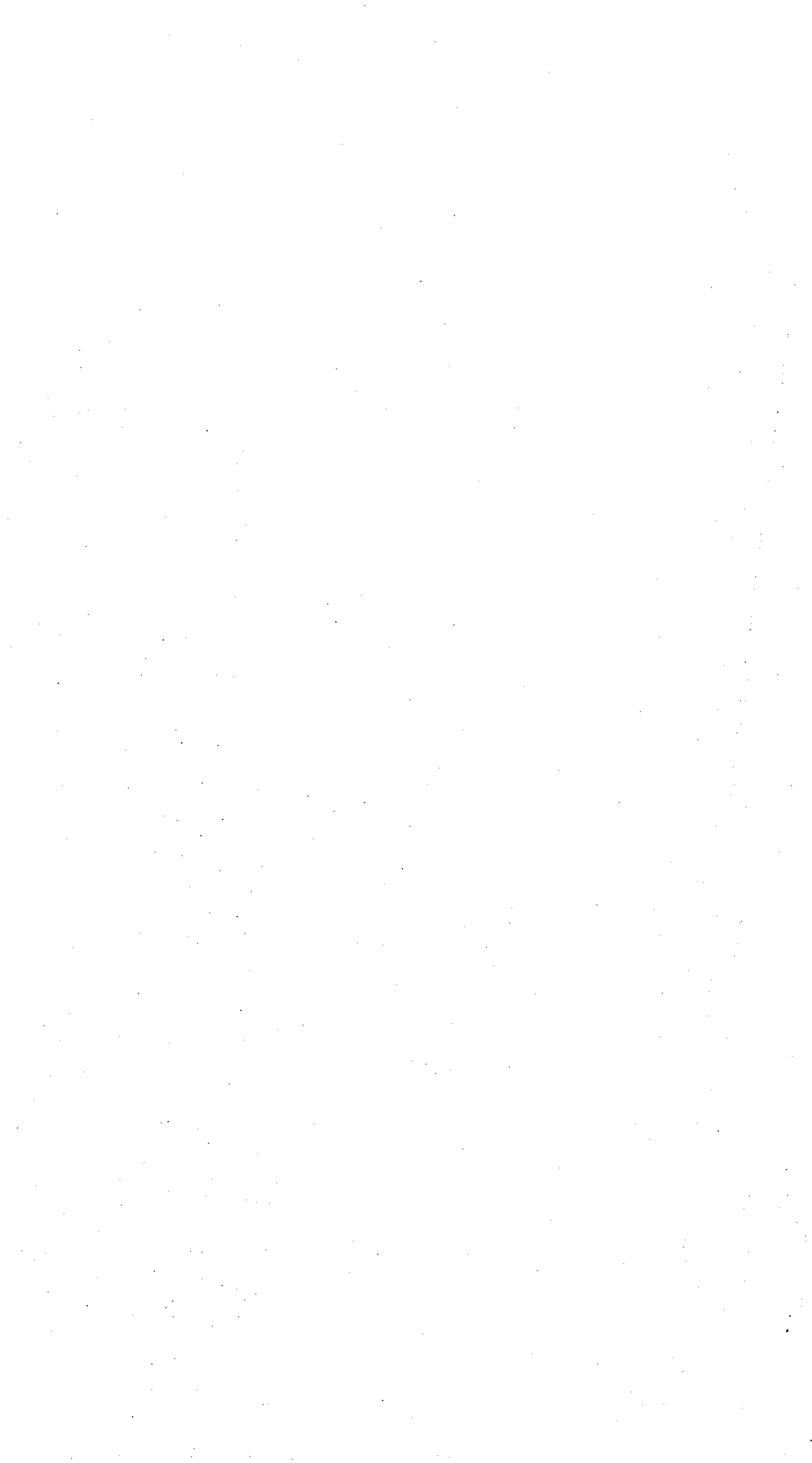


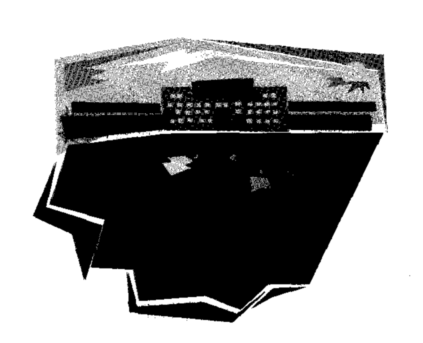
الدرجات العالية.

تعلمت أن الأَوْلى أن يتركز جهدنا على أن نعطي ما نريد لطلابنا أثناء العام، أثناء وجودنا معهم في الصف من خلال تلك الرحلة الطويلة التي تمتد على مدى عام كامل.

وتعلمت أن التحدي الحقيقي ليس أن نصنع لأنفسنا ومقرراتنا قيمة من خلال الامتحانات والدرجات، أو موقعنا الإداري، بل من خلال عطائنا وما نقدمه، وحين تمتد نظرتنا إلى ما بعد اللحظة التي يعايشونا فيها، إلى المستقبل الذي لا يمثل الحاضر سوى جزء يسير منه، ونجعل من الحاضر فرصة لغرس الاهتمام والاتجاه الإيجابي، وفرصة لبناء القدرات والشخصية العلمية، حين نصنع ذلك سوف ندرك أننا حقّقنا الكثير، وأن الواقع ليس كله كتلة سوداء، بل فيه فرص ثمينة لن يراها إلا من يبحث عنها، ويتسع أُفُقه.











عشت خلال سنوات التدريس العشر تجربة ثرية في النشاط اللاصفي، وهي الأخرى تجربة حافلة بمواقف نجاح وإخفاق، تأصلت من خلالها لدي قناعات عديدة، وتغيرت أخرى، ولو أتيح لي مزيد من التواصل معها لقلت عنها ما لم أقل الآن، فهكذا العمل البشري.

كان النشاط الطلابي يمثل ميدانًا واسعًا فسيحًا للتعامل مع الطلاب، وكان يؤدي أهدافًا مهمة من أهداف المؤسسة التربوية.

وثمت عوامل عدة كان لها أثرها في أدائي في النشاط الصفي كان من أبرزها:

- الحماسة التي كنت أتمتع بها مع بداية عملي في التعليم.
- سن الشباب والحيوية.
- وجود قدر من الفراغ، وبخاصة أني لم أكن تزوجت بعدُ.

- إيماني البالغ بأثر النشاطات الصفية ودورها في بناء شخصية الطالب والتغيير في مجرى حياته.

كان من أبرز جوانب النجاح التي تحققت من خلال النشاط الطلابي ما يلي:

- التواصل مع الطلاب خارج الصف الدراسي، وخارج إطار المدرسة وأسوارها، وفي هذا التواصل يبدو كل من المعلم والطالب على سجيته وطبيعته دون تكلف وتصنُّع، مما أتاح لي أن أعرف الكثير عن الطلاب وخصائصهم وطبيعتهم، وأن أعيش معهم حديثًا عفويًّا أفدت واستفدت منه. كما أتاح ذلك بناء علاقة ودية أخوية تكسر الحاجز الرسمي، فكان كثيرًا ما يأتي طالب منهم ليحكي مشكلاته ومعاناته، ويستشير في أمور حياته.

- تنمية خبرات الطلاب ومعارفهم وتجاربهم بما يعايشونه من برامج النشاط المتنوعة، ما بين خبرات علمية ومعرفية، وزيارة لأهل العلم والفكر، ورحلات خلوية، وزيارات لمؤسسات المجتمع الرسمية والخاصة.

- التغيير في شخصية كثير من الطلاب وسلوكهم وتحصيلهم الدراسي؛ فمجتمع النشاط المدرسي كان محافظًا، يحوي نخبة متميزة من الطلاب، مما جعله بيئة ذات أثر إيجابي على من يلتحق بها.

- اكتشاف العديد من مهارات الطلاب ومواهبهم، مما لا يتسع الصف الدراسي لاكتشافه، بل كثير من تلك المواهب والطاقات كانت مجهولة من قِبَل أصحابها، فضلاً عن غيرهم. وكانت برامج



النشاط تتيح تنمية تلك المواهب وتطويرها، فظهرت مواهبُ في الشعر والكتابة والقصة والإلقاء، والخطابة والأداء المسرحي والرياضي.

وفي مقابل هذا النجاح كانت جوانب إخفاق وقصور، لم يكن مصدر أكثرها التقصير البشري -وإن كان موجودًا- لكنها نتيجة الرؤية والتجربة المحدودة، ومن ذلك:

- محدودية الهدف من النشاط الطلابي، وقصره في مجال ضيق، وقد أسهمت بعض النجاحات في تعزيز هذا الشعور.

- الجدية الصارمة في معظم البرامج، مما قاد إلى محدودية الفئة المستفيدة منها، ولا تزال هذه النظرة موجودة لدى كثير من الأفاضل في مدارسنا.

إن مدارس البنين والبنات اليوم تحوي طيفًا واسعًا ومتنوعًا، يتفاوت في تدينه وجديته ودوافعه، مما يتطلب أن تخطَّط برامج النشاط بما يتلاءم مع الطيف الواسع، وأن تتنوع أهدافه في مستوياتها ومجالاتها.

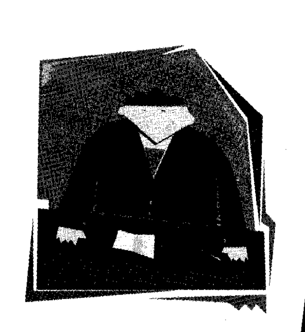
- ضعف التنوع في برامج النشاط، وتركيزها على نمط محدود، وأدى هذا الضعف إلى ضيق دائرة الاستيعاب التي انحصرت فيمن تلائمهم البرامج المتاحة، كما أدت إلى فوات كثير من مجالات البناء والإفادة لدى المستجيبين والمتعاملين مع برامج النشاط.

- قصور التخطيط في برامج النشاط، والاكتفاء بكونه هادفًا بصفة عامة، دون تحديد أهداف واضحة محددة، ومِن ثَم تصميم البرامج بما يتناسب مع هذه الأهداف ويحققها.

إن كثيرًا من جوانب النجاح والإخفاق في مجال النشاط اللاصفي لا تنفصل عما أشير إليه في مباحث سابقة؛ فشخصية المرء كيان متكامل، وتصرفاته ومواقفه ونظراته لا تنفصل عن شخصيته.

وهذا الأمر أكد لدي أهمية الاعتناء ببناء شخصية المربين، وبتوسيع أُفُقهم، ولو لم يتصل ذلك بمهمتهم التربوية بشكل مباشر، فإنه سيترك أثره على أدائهم، والأمر نفسه يمكن أن ينطبق على كل من الرجل والمرأة في حياتهم الزوجية والأسرية، فكثير من أدائهم فيها هو نتيجة لطبيعتهم وشخصيتهم.







لا يخلو التعليم من مواقف فيها طرافة أو إحراج، والمواقف الطريفة والمحرجة مما يأنس الناس بالحديث عنها، لذا يكثر توجيه السؤال عنها في المقابلات واللقاءات.

- في أول أيام التدريس كان طالب في الصف الأول المتوسط يتمتع بطول فارع وكان (عريف) الفصل.

قام بمسح السبورة قبل الدرس، ثم وضع الممحاة أعلى السبورة، ففَشِلت في الحصول عليها، وكان ذلك يتطلب صعودي الكرسي، وكدت أن أنفعل وأتعامل مع الموقف على أنه استخفاف يستحق عقوبة صارمة، لكني ابتسمت ودعوته ليحضرها ففعل وهو يضحك، ثم اكتشفت بعد ذلك أن الطالب كان يعاني من بلاهة.

- أما أول يوم قدمت فيه إلى المعهد العلمي - وكان يوافق

غرة ذي الحجة- فحين خرجت بصحبة بعض أساتذتي فوجئت أن السيارة قد تعطلت، فسبَّب لي حرجًا بالغًا لدى الزملاء، فمعظمهم كان من أساتذتي، والسيارة كانت بنظري غير لائقة (وانيت غمارة).

- وذهبت لإدارة الجامعة في مراجعة تتصل ببرامج نشاطات المعهد، فقال لي المسئول: الأخ طالب في الصف الثالث الثانوي؟ فقلت: بل معلم، فاعتذر لي.

- وكان حارس المعهد لأكثر من مرة يراني آتي صباحًا بعد دخول الدرس، وكان يحسن بي الظن فينصحني مرارًا: أنت طالب كبير وعاقل، ومثلك يدرك أهمية الدراسة، فلا يليق أن تأتي متأخرًا.

- وكنت أحتمل هذه النصائح التي لا أذكر أنه يوجهها لغيري، وأُفهِمه أني معلم، فما يلبث أن ينسى، وحين أردت الخروج ذات يوم أثناء استراحة الطلاب (الفسحة) رفع صوته يطلب مني العودة مناديًا بعبارته المشهورة (يا ولد، يا ولد)، حينها ضحك الطلاب وأخبروه أني معلم.

- أما أول أسبوع عملت فيه فقد كان يوافق امتحانات الدور الثاني، ورفض أحد المعلمين إدخالي للمعهد بحجة أني متأخر، إلى أن أقنعته بأني معلم متعين حديثًا، ولم أكن أنا الوحيد الذي عانى من الدخول، فقد تكرر الموقف نفسه مع زميل لي أطول قامة وأكثر امتلاءً مني، فجاء غاضبًا ينتقد مَنْ منعه.

تواجه المعلم المستجد - بوجه أخص- مواقف محرجة وطريفة

لا تخلو من الحرج، ومن المهم أن يحتفظ بهدوئه وانفعاله، وأن يتعامل معها بتلقائية وعفوية، وإلا ستقوده إلى مشكلات هو في غنى عنها.

- أحد الطلاب الأفارقة من كبار السن، استأذن يريد الخروج من الفصل فرفضت أن آذن له، فبقي مغضبًا صامتًا، وأثناء شرحي رفع أصبعه قائلاً: أستاذ[1].

قلت: نعم.

فقال: الدرس لي أم لك؟

قلت: لك.

قال: أنت الذي تستفيد أم أنا؟

قلت له: بل أنت.

فقال: أنا لا أريد أن أستفيد.

فضحكت أنا والطلاب وسمحت له بالخروج، ولو رفضت لربما دفعت ثمنًا أكبر.

في بعض الحالات قد نُصرّ على موقف لا مبرر له، ونضخّم الأمر فنُحرج أنفسنا، ونُحرِج إدارة المدرسة، وكان بإمكاننا التخلص من الموقف لو تعاملنا بعفوية.

- لم يكن (محمد) طالبًا كسولاً فحسب، بل كان غريب الأطوار جدًّا، ويعاني من وضع اجتماعي غير مستقر، وكنت وقتها لا أحمل التأهيل التربوي، ولا أفهم التعامل مع هذه الحالات، كان يتغيب

---

(١) الشائع مناداة المعلم بلقب (شيخ)، وهذا الموقف من المواقف المعدودة التي سمعت فيها كلمة (يا أستاذ).

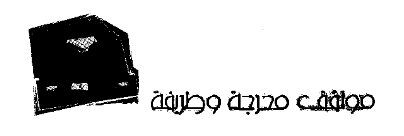
كثيرًا، ولكنه حضر في مرة وهو غير مرحّب بحضوره، حضر لدي وقد زارني المشرف التربوي لأول مرة، وهي زيارة تقويمية لها أهميتها، فأقلقني حضوره؛ لأني ملزم حينئذ أن أتعامل مع الموقف بصورة تربوية لبقة.

طالبته أن يكتب معنا فلم يكن يحمل كراسة، فطالبته أن يخرج ورقة من كراسة أخرى فلم يكن لديه كراسة أخرى، فتبرع له أحد زملائه بورقة.

وفي أثناء الدرس ما لبث أن نام، وفي الحقيقة سرني نومه، لكنه على مرأى من المشرف، أيقظته - على غير عادتي[1] - فنام مرة أخرى، طلبت منه أن يخرج فيغسل وجهه ولحسن الحظ كانت دورة المياه قريبة، وعاد سريعًا خلافًا لما توقعت وتمنيت، لكنه ما لبث أن نام مرة أخرى فأوقفته، فنام وهو واقف فماذا عساي أن أفعل والعرف والنظام لا يسمح بمطالبته بالجري أو التمارين الرياضية داخل الصف؟ بدأت أفقد هدوئي - الذي لم أكتشف سببه حتى الآن - لكن المشرف أنقذ الموقف فتحدث مغضبًا: يا شيخ محمد، هذا الطالب لا بد من معاقبته، هذا مستخفّ، لا يسوغ أن يُترَكَ هكذا، فأنقذني من الموقف، ولو أن وقت الدرس يزيد عن خمس وأربعين دقيقة لكنا أمام مفاجآت أخر مع صاحبنا.

- في أول عام من التدريس كنت محل عناية المشرف لأني

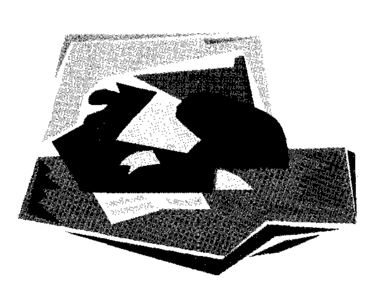
(١) كنت أمتنع عن إيقاظه من باب تحمل الضرر الخاص لدرء الضرر العام، أو من باب المقولة الشائعة لدى العامة وهي ذات ملحظ شرعي (نوم الظالم عبادة).



مستجد، جلس معي المشرف في غرفة أحد مسئولي المعهد، وبدأ يقلب سجلات الدرجات ولاحظ أن أحد الطلاب مستواه ضعيف فقال لي: مثل هذا الطالب يجب أن يستدعَى ولي أمره ويُشعر بمستواه، والتفت إلى المسئول فقال المسئول: نعم نحن نستدعيهم ونُشْعِرُهم، لكن الأمر الذي يبعث على الحرج أن ولي أمر هذا الطالب هو هذا المسئول، لكن الوحيد من بين الثلاثة الذي يعلم من هو المقصود هو أنا فآثرت الصمت ومرَّ الموقف بسلام.







المهملون
يحسنون الإحتيال



- كان كسولاً جدًّا، لا يمكن أن يقوم بأداء الواجب، طالبته وتهددته تهديدًا بالغًا إن لم يحضر الواجب في الدرس القادم فإني سأعاقبه.

جاء الدرس القادم، فلم أنس الأمر، ولم ينسه هو، سألته عن الواجب فأخرج لي كراسته وقد مُزّقت منها صفحة، فقال: كنت قد كتبته لكن وجدت أثناء عودتي من الفسحة أن أحدًا قد مزَّق الصفحة، وقد كان هذا المعتدي رحيمًا بصاحبنا فترك آثار العدوان على كراسته.

قلت له: يا بني لا أظن أحدًا سوف يحسدك على مستواك وتحصيلك، وكنت أتمنى أن تستبدل أداء الواجب الذي لا يستغرق منك سوى دقائق بالجهد الذي بذلته في الاحتيال.

- أمسكت أحد الطلاب وهو يغش في الامتحان من ورقة

صغيرة كتبت بعناية (يسميها الطلاب برشامة)، فلُمته على عمله واتخذت الإجراء المعتاد في ذلك.

لكنه قال لى: لم أكن أريد الغش! قلت له: أفهم أنه حين يتحدث الطالب مع زميله أو حين يلتفت يمنة ويسرة أنه قد لا يريد الغش، لكن اصطحاب هذه الورقة ماذا يعني؟

قال لى: كنت أنصح إخواني الصغار البارحة ألا يغشوا، وأشرح لهم وسائل الغش فنسيت الورقة في جيبي.

قلت له: حين تكون كذلك فالمفترض أن تُمَثِّل لهم من المقرر الذي يدرسونه، وليس المقرر الذي تدرسه أنت.

- ومما أتذكره أننا ونحن طلاب في نهاية المرحلة الثانوية اتفقنا أن نتغيب يومًا عن الدراسة، ونذهب إلى معرض الكتاب، فاجتمع الزملاء في منزلي وتناولنا الإفطار، وذهبنا سويًا للمعرض، وفي اليوم نفسه تغيب الكثير من الطلاب فاستُدعيَ الغائبون للمساءلة، وكان أحدنا يجمع بين الذكاء والورع، فمرّ بسيارته أمام المستشفى، ثم قال معتذرًا عن الغياب: إني مررت على المستشفى، وآخر اعتذر مرة عن أداء الواجب بأن جده ميت، وفعلاً كان جده ميتًا، لكنه قبل سنوات عديدة.

- حين دخلت قاعة الامتحان في مقرر التفسير وجدت على أحدهم علامات الارتباك، وكان ماهرًا بالغش، وبعد مرور دقائق تأملت فيه فلمحت كتابة في أسفل ثوبه، فإذا هي تتعلق بالنحو، فقلبت الجهة الأخرى فإذا هي في مقرر آخر، فنظرت إلى كُمِّه فإذا هي مقرر ثالث، وأخيرًا وجدت ضالتي في ذراعيه.

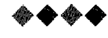
إن هذه المواقف ينبغي أن نقرأ فيها بُعدًا يتجاوز الطرافة والغرابة لنكتشف من خلالها جوانب في الشخصية يمكن استثمارها بصورة إيجابية.

إن كثيرًا ممن نصفهم بالفاشلين، ونصدر عليهم أحكامًا قاسية يملكون جوانب من النجاح وربما التميز.

وهنا تأتي مهمة المعلم في البحث عن هذه المواطن، وفي اكتشاف جوانب القوة والتميز، وتوظيفها في تغيير واقعهم.

إن محدودية مجال التفوق في ميدان التعليم تشعر كثيرين بالفشل والإخفاق، وهنا تأتي مهمة المربي في مساعدتهم على اكتشاف أنفسهم.

ويمكن أن تكون كثيرٌ من المشكلات والتجاوزات التي يقع فيها الطلاب مدخلاً مهمًّا لإقناعهم بقدراتهم، ومساعدتهم على تحويل هذه القدرات إلى مجالات إيجابية متميزة.











في أول أسبوع بدأت فيه التدريس، سألني أحد أساتذتي الأفاضل ونحن خارجون إلى صلاة الظهر في المسجد المجاور للمعهد: هل مللت من التدريس؟

فأجبته: حتى الآن.

فقال لي: سوف أسألك هذا السؤال بعد عشر سنوات، وستتغير حينها إجابتك.

مضت عشر سنوات كما قال شيخي، تغيرت فيها لدي أمور وأولويات ومفاهيم كثيرة، لكني بحمد الله لم أملّ من التعليم.

إن المعلم بشَر، قد يقبل على التعليم بحيوية ونشاط وفاعلية، لكنه ما يلبث حين يعيش الواقع ويتعامل مع الطلاب أن يملّ وتفتر همته.

وحين يملّ المعلم يَضْمُر أداؤه، ويقل حماسه وتفاعله، فلا





لماذا يحبط المعلمون



حين تتحاور مع أحد المعلمين أو المعلمات فسترى أن لغة اليأس والإحباط سائدة إلى حد كبير.

يقال لك: لقد تغيّر الطلاب كثيرًا، لقد زالت كثير من الصور المشرقة، وتركت تطورات التقنية والاتصالات أثرها عليهم.

تغيروا في جديتهم وتحصيلهم الدراسي، وتغيروا في سلوكهم وتعاملهم مع المعلمين، وتغيروا في تدينهم وطاعتهم لله عز وجل.

إن التغير الذي نراه اليوم لا يُنكَر، وهو تغير هائل وسريع، ولكن هل كان الجيل على وتيرة واحدة حتى تغير الآن؟

اقرأ ما كتبه المربون والمعلمون منذ عشرات السنين، وسترى أن كلاً منهم يكرر المقولة نفسها.

كنا نسمع الكلمة نفسها ونحن طلاب في أواخر التسعينيات

الهجرية، وحين انتقلنا إلى التدريس والتعليم أصبحنا نقول المقولة نفسها في حوارنا مع زملائنا أو مع طلابنا.

وحين ألتقي بطلابي الذين درّستهم أجدهم يرددون الشكوى نفسها مقارنين بين ما كانوا عليه، وما عليه طلابهم الآن.

بل أذكر أني وفي عمر التدريس الذي لم يتجاوز عقدًا من الزمان كنت أقارن بين جيل وآخر، وقد عشت جيل القنوات الفضائية وبدايتها فرأيت عجبًا.

تذكرت حينها مقولة الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله: «لقد كنت أرى في السينما -حتى لما صرت أتردد عليها[1] - أجمل ملهاة للشباب وأخطر ملهاة، وأنها كالسم المحلول في كأس الشراب اللذيذ، لا يكاد يذوقه حتى يسيغة، ثم يألفه فيعتاده فيقضي عليه.

فلما جاء الرائي (التلفاز) رأيناه أخطر علينا منها؛ لأن السينما لا نرى ما فيها حتى نذهب نحن إليها، والرائي يجيء هو إلينا، والسينما لا نحضرها إلا إن حجزنا لنا مكانًا فيها، ولبسنا الثياب الصالحة لها، ودفعنا أجرة الدخول إليها، والرائي نراه في جميع الأحوال بلا تعب ولا مال.

فلما جاء الفيديو وأنا سمعت خبره وما اقتنيته هان علينا أذى السينما والرائي، فهل تأتينا الأيام والليالي بمصيبة جديدة يهون معها الفيديو؟».

التقيت بشيخي عبد الله بن قعود -رحمه الله- شاكيًا له ما

---

(١) كان يتردد ليكتب تقارير صحفية عنها، وإلا فهو ينكرها، رحمه الله.

أراه من خلل سلوكي وأخلاقي لدى الطلاب، محدثًا إياه بأمثلة صارخة، فقال لي: هذا كله يهون عند الانحراف الفكري؛ فالانحراف السلوكي مظنة أن يعود صاحبه، بخلاف الانحراف الفكري فصاحبه يرى أنه مُحِقّ، بينما الآخر ينظر إلى نفسه على أنه مذنب.

قدّرت ما سمعته من الشيخ، وترك أثرًا لدي، لكن حماستي المتوقدة آنذاك حالت دون أن أشاركه القدر نفسه من الاقتناع، فرحمه الله ورفع درجاته.

وها أنذا اليوم أرى العديد من طلابي ممن كنا نعيّرهم بأنهم دون من سبقهم، فضلاً عن أجيالنا نحن، لكني حين أراهم أرى صورة مختلفة، وأدرك كم نظلم أنفسنا -قبل أن نظلم الآخرين- حين نرسم صورة متشائمة.

أعرف أن كثيرًا من القراء يعترض بأن التغير اليوم لا يقاس بالماضي، فهو انقلاب هائل في السلوك والمفاهيم والقيم.

لست أنكر ذلك، لكن المقولة نفسها كانت تقال فيما مضى أمام جيل التلفاز، ثم جيل الفيديو، ثم جيل القنوات، ثم الإنترنت.... إلخ.

تعلَّمت أثناء عملي في التعليم أن أكون متفائلاً، تعلَّمت أن أتعامل مع واقعي كما هو.

أدركت أن اللوم والعتاب على التغير لن يقدم طلابي كثيرًا؛ بل هو سيعوقهم ويُوجِد الإحباط لديهم.

فتجاوزت هذه اللغة، وتركت هذه الملامة، وقررت أن أتعامل

معهم كما هم عليه، وأن يكون شأني الاجتهاد في الارتقاء بهم، ومساعدتهم على تجاوز واقعهم.

ولو عدت الآن إلى تدريس الناشئة لعدت بالروح نفسها، ولتلافيت هذه اللغة إلا على سبيل العبرة والعظة.

وأحسب أن إخواننا المعلمين والمعلمات ممن تعلو اليوم لديهم روح اليأس والإحباط لو رأوا تلامذتهم بعد عشر سنوات سيتغير موقفهم كما تغير موقفي.

وما أجمل ما قاله الشيخ محمد الحامد -رحمه الله-: «لما وجهت إلى وزارة المعارف تدريس الديانة والعربية في تجهيز حماه، كنت كثير التشاؤم من حال الطلاب ووضعهم.. ولكن بعد قليل تبدل تشاؤمي تفاؤلاً، وانقباضي انبساطًا واستبشارًا.. حثثتهم على الصلاة فصاروا يصلون، ويحضر بعضهم الدرس العام.. وقذف الله -تعالى- النور في قلوبهم، فشعروا بتفريطهم الماضي، فطفقوا يسألونني عن أحكام تتعلق بقضاء الفوائت.. ومن قريب سألني أحدهم عن حكم يتعلق بقيام الليل، مبديًا رغبته في قيامه.. أولادكم يا مسلمون فيهم استعداد طيب، فهلا تسعون إلى استثمار هذا الاستعداد؟ أشفقوا أن تلقوا أفلاذ أكبادكم في النار بترك الغوائل تغتالهم.. ». (علماء ومفكرون عرفتهم).

◆◆◆◆

ختاما

سنوات معلما

د.محمد الدوس

وتجاربنا، مما نكتسب معه أدوات أخرى تعيننا على قراءة أعمق لماضينا وتجاربنا.

وحتى تكون القراءة مجدية لا بد أن تكون صريحة بعيدة عن تزويق الذات أو جلدها، وأن تكون واقعية لا تجنح للمثال، وتتطلع لما فوق إمكانات البشر، معتدلة لا تبالغ في اتجاه على حساب آخر، وعميقة لا تقف عند الشكليات والمظاهر.

ها هي صفحة من حياتي وتجربتي دونتها -فيما أحسب- بكل جرأة ووضوح؛ لتكون بين يدي القارئ؛ علَّها أن تختصر لديه جزءًا من تجربته؛ فيبدأ من حيث انتهيتُ، وينطلق إلى آفاق عجزتُ أن أدركها وأصل إليها.

أسأل الله أن يمدّ في أعمارنا على طاعته، وأن يجعلنا ممن يعتبر بأمسه ويأخذ منه أُهبة لغده، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه.



فهرس

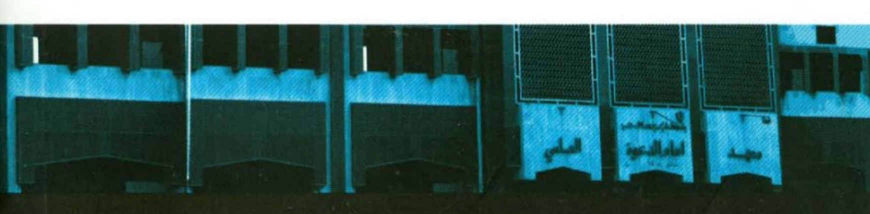


عشر سنوات مُعلِّمًا

د. محمد الدويش

مطابع أضواء المنتدى ت: ٢٤٢٣٦٧٠ - ف: ٢٤٢٣١٩١

بعد أن تجاوزت تلك المرحلة، واتجهت للحديث والكتابة في قضايا التربية شعرت أني بحاجة لأن أعود إلى الوراء للتجربة العملية؛ لأنظر إليها بلغة المختص، أعود فأكتشف منها المزيد،أعود لأقرأ مواقفها ومشاهدها بلغة أخرى فبعض ما كنت مندفعاً له لم أعد أحمل تجاهه ذاك القدر من الاندفاع، وبعض ما كنت أرفضه ولا أقبل فيه النقاش أصبح قابلاً للتفكير والمراجعة.



رقم الإيداع ١٤٣٠/٩٩٤
ردمك:٥-١٩-٢٠١٩-٠٠-٦٠٣-٩٧٨